

الكلمة في السياق القرآني

- مقارنة إعجازية -

أ/ جمال بوسنون

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل

تمهيد:

نزل القرآن الكريم متحديا الثققلين على أن يأتوا بمثله، وفق تدرج غاية في الإحكام، فكان أن توزع متلقّوه إزاءه إلى فريقين: فريق معاند جاحد، بلا قدرة على المعارضة، بل هو العجز المستحكم، وفريق مسلم مستسلم، أيقن بالنقل والعقل والواقع أن هذا القرآن ليس في طاقة أحد، بل هو كلام الخالق سبحانه، تحدى به العامة ليكون حجة تثبت صدق رسوله وسماوية رسالته.

ولقد أفضى هذا التحدي القرآني إلى تحفيز رغبة البحث لدى علماء المسلمين؛ بغية الوقوف على مكنن تحديه وسر إعجازه الممتد زمانا ومكانا، فكان أن انتهوا إلى ضبط جملة من وجوه إعجازه؛ مما اصطلح عليه بنظريات الإعجاز القرآني. حيث ذهب الباحثون في المسألة مذاهب شتى، تبعا لتباين مذاهبهم ومناهجهم، فضلا عن اختلاف زوايا نظرهم، إذ رجّح كل طرف ما رآه الوجه المفسّر، أو الأكثر تفسيراً على الأقل، للمقصود بالتحدي.

إذن؛ فقد تعددت وجهات نظر العلماء مذ بدأ الخوض في غمار هذا المجال الدراسي، إذ يصادف المطلع على ما أُلّف في المجال على كثير من الآراء المتوافقة حيناً، والمتضاربة أحياناً أخرى، والتي أثّرت بتراكمها وإثراء بعضها لبعض، تأييدا ونقداً وتدقيقاً واستدراكاً، هذا الصرح الكبير من الدراسة الإعجازية التي ساهمت أيما مساهمة في تعميق الدراسات اللغوية والنقدية العربية تنظيراً وتطبيقاً.

ولئن كان هناك من أورد وجوهاً إعجازية خارج لغوية، كالإخبار عن الغيبات، وما تلا ذلك من قول بالإعجاز التشريعي والعلمي والعددي وغير ذلك⁽¹⁾، مما هو متفق على كونه من الإعجاز، إلا أن القول الأشهر في المسألة هو أن القرآن الكريم معجز بلغته؛ لأنه الوجه الذي ينسحب على جملة القرآن، في سورة وآياته، بلا استثناء. علماً أن هذا الوجه العام قد تفرع بدوره

إلى وجوه تفصيلية، متأرجحة بين الأصوات، والمفردات، والنظم، والفصاحة، والبلاغة، أو ببعض هذا، أو بجميعه، وربما غيره⁽²⁾.

ولأن تفصيل الحديث في كل هذه الأوجه اللغوية مما لا يمكن بحال في هذا الفضاء؛ فإننا سنقتصر مقارنة الإعجازية على وجه واحد منها، يمثل أهم وحدة دالة في النظام اللغوي عامة وهو الكلمة. وهنا يجدر التنبيه إلى أن ما سنسرده من الخصائص الإعجازية للمفردة في سياقها القرآني ليست مستقلة عن بعضها على مستوى الكلمة الواحدة، بل هي متشابكة إلى درجة تعدد الفصل بينها. غير أننا - مع ذلك - قدّرنا إيراد هذه الخصائص في نقاط مستقلة؛ لعله منهجية تتعلق بتيسير ضبطها والتمثيل لها، وهي التي يمكن إجمالها في الخصائص العشرة الآتية:

أولاً: تحقيقها لشروط فصاحتها:

إن من أبرز ما تميزت به المفردة القرآنية بعامتها هو خلوصها من جملة العيوب المخلة بفصاحتها، والتي حددها أهل الاختصاص في ثمانية عيوب، كما فصل ذلك ابن سنان الخفاجي، وهي كالتالي، بعد الجمع وإعادة الترتيب⁽³⁾:

1. أن تكون اللفظة من حروف متباعدة المخارج، لا متقاربة، ولا كثيرة الحروف، بل معتدلة.
2. أن يُلمس فيها حسنٌ في السمع، وذوقٌ فيّ، مما لا ينبو عنه الطبع السليم.
3. أن لا تكون متوعدة وحشية، ولا ساقطة عامية.
4. أن تكون جارية على العُرف العربي الصحيح.
5. أن تكون مصغرة في أي موضع غُبرَ بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل.

وإن الناظر في القرآن الكريم، على امتداد آياته، ليجد أن كلماته قد بلغت ذروة الفصاحة، احتكاماً إلى ما عدّناه من شروط فصاحة المفرد، حتى إنك لا تجد شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أعذب من ألفاظ القرآن، فلا تباعد في مخارج أصوات كلماته، ولا تقارب، ولا كثرة، بل الاعتدال في ذلك هو السمة البارزة، مما يجعلها خفيفة مناسبة على اللسان، عذبة في السمع. علماً أن ميزة الخفة شاملة لكل مفردات القرآن الكريم، وأن العذوبة مما يُشعر بها عند قراءة كل مفردة، «فليس في القرآن ما يثقل نطقاً أو سمعاً، إنما وُظِّقت طبيعة الأصوات لتجسيم المواقف»⁽⁴⁾. ولئن كانت بعض هذه الخصائص، خاصة ما تعلق منها بالخفة، تعود في أصلها إلى

طبيعة العربية من حيث طريقتها في انتقاء أصوات مفرداتها، ثم كيفية تركيبها، بما يجعلها عن الثقل أبعد؛ فإن الذي لا مرأى فيه عند كل قارئ، أن هذا القرآن قد أضاف إلى مزية هذا اللسان مزية. إن خفة وعذوبة مفردات القرآن ظاهرة محسوسة، وعلة ذلك ما تميزت به من اعتدال أصواتها انتقاء وتركيبا، مما لا يثقل على اللسان، ولا تنبو عنه الآذان والطباع. بل إن القرآن قد تفرد بميزة فيما تعلق بعذوبة ألفاظه، فإنك تجد في القرآن كلمات يشهد الذوق بحسنها لأنها هُذِّبَتْ ووُضعت موضعها المحكم اللائق بها، بينما تراها في غير القرآن معيبة شاذة، وذلك بشهادة النقاد أنفسهم، والذين عللوا حكمهم بأسباب فنية خالصة، خارجة عن اعتبار قداسة القرآن، ومن ذلك كلمة "مقاعد" (5).

وقريب من هذا ما كان الرافعي قد أشار إليه بقوله: «أما أن اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء، لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه، إلا ما كان من اسم غُرِّبَ ولم يكن في الأصول عربيا، كإبراهيم.. وإسماعيل [.....] ونحوها، ولا يجيء فيه كذلك إلا أن يتخلله المد كما ترى، فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان» (6)، فيكون المد حينها ذا وظيفة تسهيلية للنطق بالكلمة.

وما قلناه في الخفة والعذوبة قُلْ مثله فيما تعلق بشروط فصاحة الكلمة المشار إليها آنفا؛ من كونها أبعد ما تكون عن وحشي المفردات، أو ساقطها، أو مخالفتها لقواعد الصرف المشهورة، إلا ما أحوج أحيانا إلى بعض البحث والنظر، دون أن يدخله ذلك في دائرة الوحشي الغامض، الخارج عن مألوف استعمال العرب. وأما ما كان مبهما بسبب كونه مشتركا أو تضادا، فليس ذلك من قبيل الغرابة المعيبة، ما دام السياق يُعين على تحديد المراد منه، فضلا عما يبعث عليه هذا الأسلوب من بحث وإعمال فكر، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: 157]، فالتعزيز مشترك على سبيل التضاد بين التعظيم والإهانة، غير أن القرينة اللفظية "نَصَرُوهُ" وضحت المقصود، وبالتالي فلا غرابة. وأما الانضباط بقوانين الصرف، فإن القرآن هو المرجع الأعلى في ذلك، والنموذج الأمثل في الاستشهاد على استقامة القول، المفرد منه، والمركَّب على السواء.

ولكن؛ رب معترض على ما قدمنا، بكون القرآن قد تضمن بعضا - وإن قلَّ - مما ثقل على اللسان، وعُسِّر على الفهم، وحينها قلنا في الرد: بل إن تلك ميزة أخرى تستحق أن تُفرد بالإشارة في الخاصة الآتية.

ثانيا: ثقل الكلمة وغرابها لثقل الموقف وغرابته:

انتهينا في الخاصة السابقة إلى أن الكلمة القرآنية قد حققت جميع شروط الفصاحة التي نصَّ عليها أهل العلم والدوق، بما في ذلك خفتها ووضوحها، غير أن واقع بعض الكلمات في السياق القرآني يخالف ذلك، فهل ورد في القرآن ما ليس فصيحاً؟ الجواب: كلا؛ وهذا تفصيله:

1. ثقل الكلمة:

من الكلمات التي وردت في القرآن الكريم وثقلها ظاهر حتى أن اللسان يكاد فيها يتعثر، ثلاث كلمات هي: "لَيْسْتَ خَلْقَنَّهُمْ" [النور: 55]، و"فَسَيَكْفِيكَهُمْ" [البقرة: 137]، وكذلك: "أَنزَلْنَاهُ مَكْمُومًا" [هود: 28]. وواضح أن علة الثقل فيها جميعا هو كثرة حروفها، فالأولى أحد عشر حرفا، باحتساب الإدغام، والثانية عشرة، والثالثة تسعة. فكيف التعامل مع هذه الحالة، مادام وصف القرآن بغير الفصاحة لا يصح قطعا؟

في الإجابة عن هذا التساؤل شطران، الأول أشار إليه بعض الباحثين، فحسبهم أن هذه الكلمات، وإن كان فيها ثقل قد يخل بفصاحتها، إلا أن ورودها في القرآن قد كشف عنها مظهرها من مظاهر التهذيب، وهي عندهم سياسة لغوية تجعل ما بدا ثقيلا في الواقع عذبا خفيفا، وهذه السياسة تتمثل في تسكين مقاطع الكلمة عندما تثقل بسبب طولها، أو توالي حركاتها، فإذا أخذنا مثال "فسيكفيكم الله"، نجد أن الكلمة الشاهد «جاءت ذات ثلاثة مقاطع. وقد تكرر فيها الياء والكاف. وتوسط الكافين مد هو سر الفصاحة في الكلمة كلها، لأنه خفف من اجتماع المثلين، كما فصل بين اليائين بالكاف الأولى والفاء، وانتهى كل مقطع من مقاطعها الثلاثة بالسكون كذلك، فنزلت منزلة ثلاث كلمات، كما ترى، وعذبت رغم طولها»⁽⁷⁾.

وأما الشطر الثاني من الجواب عن تعليل الثقل في الكلمات الآتية الذكر؛ فهو أن ثقلها وتعدد تركيبها له علاقة بثقل مدلولها وتعقده، إذ لما كان المدلول عليه مركبا ومعقدا، صار أحوج ما يكون للتعبير عنه إلى لفظ متناغم معه، كي يحدث نوعا من الانسجام بين ما نشعر به من ثقل وما نستحضره من معنى، وبذلك يكون اللفظ خير معبر ومجسد لمعناه. أو كما ذهب سيد قطب

في تحليله الرائع إلى أن «كلمة "أنلزمكموها" تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق، وشد بعضها إلى بعض، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدون إليه وهم منه نافرون!»⁽⁸⁾، ثم عقب قائلاً: «وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية، وأرفع من الفصاحة اللفظية»⁽⁹⁾. وهذان التعليان لمغزى ثقل الكلمة من العمق ما يجعلهما جديدين بالأخذ والاعتبار.

2. غرابة الكلمة:

لقد رد ابن سنان عمن تساءل عن مبهمات وألغاز القرآن كما في أوائل بعض السور من الحروف المقطعة، نحو: ألم، أُر، كهيعص، بأن ذلك مقصود منه استخراج أفهام الناس، فهو فن من الفنون لا ينسحب عليه الحكم بعدم الفصاحة، الذي قضى به على غريب المفردات⁽¹⁰⁾، وهنا يصلح أن نكتفي بمثال واحد، يمثل النموذج في غرابة الكلمة القرآنية، وهي كلمة "ضيّزى" في قوله تعالى: ﴿الْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: 21، 22]، وهذه الغرابة الظاهرة يجعلها - من حيث المبدأ على الأقل - محلة بفصاحتها، فهل الأمر كذلك؟ إن ما عللنا به ثقل بعض الكلمات سابقاً يصلح أن نسجبه على هذه الحالة، ذلك أن غرابة الكلمة هذه لها ما يبررها، بما يقيها في دائرة الفصيح المعجز. وقد تميز ابن أبي الأصبع بنظرته العميقة في هذه الإشكالية، حيث ربط غرابة الكلمة بغرابة الموقف، مورداً لذلك جملة من الشواهد القرآنية، تحت عنوان "ائتلاف اللفظ والمعنى"، بمعنى احتواء اللفظة موضوعها⁽¹¹⁾، ممثلاً لها بلفظة "حَرَضاً"⁽¹²⁾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُونُسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: 85].

وقد مال الرافعي إلى هذا الربط السببي بين غرابة الكلمة وغرابة ما دلت عليه، تحقيقاً للتوافق الشعوري بين الدال ومدلوله، بما يجعل الإغراب في هذه الحالة فعلاً قصدياً لا عفويّاً. وفي تحليل وتعليل رائعين لمغزى غرابة كلمة "ضيّزى" يقول: «وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة "ضيّزى" [.....] فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الباء؛ فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد [.....]

فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها⁽¹³⁾، وهو رأي من الرافعي جدير بالتنويه.

ثالثا: حسن انتقاء اللفظة من جملة "مترادفات":

وهذه الخاصية مبنية على فرض وجود الترادف⁽¹⁴⁾. وعلى هذا الأساس فإن القرآن الكريم ينتقي من بين ما قد يعتبره البعض مترادفات أدقها دلالة مقارنة بنظائرها، حتى إنه ليتنزه عن إمكانية تبديل كلماته بحجة ترادفها، ليس ذلك بحكم توقيفية القرآن، فذلك مانع ثانٍ، وإنما عدم الإمكان مرده لأسباب فنية دلالية، إذ «لا جرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضعه عن الآخر إن أريد شرط الفصاحة»⁽¹⁵⁾، فإذا تغير اللفظ تغير المعنى بمقدار ذلك، وإن بقي المعنى العام واحداً.

إن سياق الآية، أو السورة، أو القرآن عامة، هو الذي يستدعي الكلمة المناسبة، بناء على كونها الأدق تعبيراً عما أريد من معنى، وأدقها تصويراً له. وحتى لو ذهبنا مذهب القائلين بالترادف التام الذي بمعنى المطابقة؛ أي في حالة ما «إذا كان المدلول واحداً، والدلالة متعددة، فلا أقل من انتقاء صوتي يجعلنا نفضل ما ترتاح إليه الأذان وتميل إليه النفس»⁽¹⁶⁾، بمعنى إن لم تكن هناك بواعث دلالية للانتقاء؛ فلتكن الدوافع الجمالية هي الدافع.

ومن نماذج التمييز القرآني بين ما يُعتقد دخوله في باب الترادف، أنه يناوب في الاستعمال بين "الخوف" و"الخشية"، وبين "التمام" و"الكمال"، وبين "الإتيان" و"الاجيء"، وغيرها⁽¹⁷⁾، وكل ذلك بحسب ما يقتضيه السياق الدلالي، أو الإيقاعي، أو هما معا. وهذا ما أشار إليه الزركشي إذ قال موضحاً وموجهاً: «ولهذا وُزعت بحسب المقامات فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر، فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنى غير معنى الأفراد»⁽¹⁸⁾. ومن أمثلة هذه الدقة القرآنية في انتقاء الكلمة المناسبة للسياق الواردة فيه، ما التفت إليه ابن أبي الأصبع من المغايرة في توظيف كلمتي "التراب" و"الطين"⁽¹⁹⁾، في إشارة إلى قوله تعالى في آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، وقوله في موضع آخر: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 71].

وليس هذا كل ما في الأمر؛ بل إن «أعجب العجب أن القرآن لا يكتفي بانتقاء الألفاظ في نماذجها، بل هو يشترع في ذلك صراحة وينبه إلى خطأ وقع لاستعمال اللفظ في غير موضعه ويرشد إلى بديله»²⁰، وذلك في قوله تعالى مخاطبا عباده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمِعُوا﴾ [البقرة: 104]، وكذا في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14]، ففي الآيتين تنبيه وتصويب، إذ ليس راعنا كانظرنا، ولا آمنا كأسلمنا. وهذا النهج في اختيار اللفظ هو الذي سار عليه القرآن في كل ما بدا مترادفا، وهو ليس كذلك عند تدقيق النظر.

رابعا: وقوعها الموقع المناسب داخل النظم:

ليس غرضنا هنا الحديث عن ظاهرة التقديم والتأخير، تلك التي تناولها النحاة في إطار تفصيلهم لأحكام الجملة وأحوال تركيبها، فذلك تحكمه قوانين النحو، والكلام فيه إعجازيا يكون في إطار الإعجاز النظمي التركيبي، إنما الذي نقصده هنا هو نوع خاص من التقديم والتأخير، حيث تتموضع الكلمة في سياق معين، دون أن تخضع رتبته لقاعدة نحوية أو لغوية، بل ترتيبها يخضع لحكم وأسرار خفية؛ لا سبيل للإحاطة بها إلا بالنظر في موقعها من خلال المقارنة بين سياقاتها المتشابهة.

فمبحث التقديم والتأخير في الواقع الاستعمالي أوسع من أن يُحصر في دائرة أركان الجملة ومتعلقاتها، بل يشمل أيضا مباحث أخرى، مثل ترتيب الصفات، والمعطوفات بالواو. والتخصيص هنا بالواو «لأن الواو - كما قيل - وإن كانت لا تفيد الترتيب فإنه لا يتقدم اللفظ في الكتاب العزيز ذكرا، أو يتأخر، إلا لموجب»²¹.

وهذا الاستثناء القرآني، وخروجه عن مقتضى القاعدة النحوية المتعلقة بالواو العاطفة، له شواهد كثيرة، منها ما أورده الكرمانلي من آيات متشابهات أسلوبيا، ولا يفرق بينها إلا ترتيب ما فيها من مفردات، كما في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135]، في مقابل قوله تعالى: ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8]، وقد فسر ذلك بعامل التعلق، ففي آية النساء نجد اسم الجلالة "الله" متعلقا ومتصلا بالشهادة، بينما في المائدة فهو سبحانه - الله - منفصل ومتعلق بقوامين²².

وفيما تعلّق بالصفات المتعاطفة بالواو؛ فقد سرد لها ابن الصائغ أمثلة وافية، ثم استدرك عليه عبد العظيم المطعني بعض ما فاتته، من ذلك استدراكه عليه في كون تقدّم "السمع" ليس مقتصرًا على "البصر"، بل على "العلم" أيضًا، ثم شرع في بيان سرّ تقدم السمع وتأخر البصر، يقول: «فتقدّم السمع على البصر لكونه أهمّ منه، لأن ما يحصل من ضروب المعرفة عن طريق السمع لا يحصل عن البصر، والبصر يتوقف في تحصيله للعلم على وسائط لا يتوقف عليها السمع»⁽²³⁾. وليس هذا إلا مجرد مثال، وإلا فهو في القرآن كثير، كما بين "النور" و"الظلمات"، و"النهار والليل"، و"الإنس والجن"، و"السماء والأرض"، وغيرها مما لا يخلو بحال من فائدة ومغزى عند أهل الذوق. وبهذا فإن التّموقع المثالي للكلمة القرآنية سمة مستغرقة لكل القرآن، لا فرق في ذلك بين ما كان خاضعًا لقاعدة نحوية وما كان غير ذلك. وهذا التّموقع في الترتيب هو الذي يسمو بها عاليًا، فيجعلها متمكنة مقبولة، حسنة الاتفاق معنى مع سابقتها ولاحققتها، لا قلقة نابية مستكرهة لسوء الاتفاق والتلاؤم⁽²⁴⁾.

ومما هو قريب مما نحن بصددده مسألة الزيادة في القرآن، فما من كلمة -ومنها الحرف- تزداد إلا والمعنى يطلبها، «فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها بمعناها إنما هو نقص يجلب القرآن عنه... فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأي يسنح في البلاغة، من جهة نظمه أو دلالته، أو وجه اختياره»⁽²⁵⁾، فليس في كتاب الله تعالى حشو، ولا هنالك لفظة زيادتها كتنقصانها، بل كل زيادة في اللفظ زيادة في المعنى وضبط في الإيقاع.

خامسًا: التناسب الإيقاعي مع السياق التركيبي:

ليس ما أشرنا إليه سابقًا من تموقع وترتيب للكلمة القرآنية عائداً في كليته إلى أغراض دلالية ظاهرة أو خفية، بل الحقيقة الملاحظة بجلاء أن اختيار اللفظة بدايةً من جملة "مترادفات"، ثم دقة ترتيبها في سياقها النظمي، راجع أيضًا وبالدرجة نفسها، إلى ما تنطوي عليه من جانب إيقاعي نغمي. إن الكلمة شكل ومضمون في آن، وليس الشكل زخرفة زائدة عن الحاجة، بل له دور مؤثر في الإحساس بالمعنى.

وهذا الانتقاء على أساس الإيقاع له صورتان، الأولى متعلقة بالكلمة في حد ذاتها، أي مستقلة عن سياقها، ذلك أن «للألفاظ من حيث هي ألفاظ وأصوات أثر موسيقي خاص يوحى إلى السمع بتأثيرات مستقلة تمام الاستقلال عن المعنى»⁽²⁶⁾. وهذا ما يمكن أن نقف عليه عند

دارسي الإعجاز وحتى النقاد، إذ طالما استحبوا ألفاظا، وحكموا لها بالمزية لمجرد ما فيها من حلاوة النغم، حتى إنهم كرهوا ما كان كثير الحروف من الكلمات، إلا ما كان واردا في القرآن، لما أضفى عليها من خفة ونغم، بطريقته في انتقاء وترتيب الأصوات والحركات والمدود⁽²⁷⁾.

ويدخل ضمن هذه الصورة الأولى المتعلقة بإيقاع الكلمة منفردة؛ ما يمكن التعبير عنه بارتباط الصوت بالمعنى، حيث تختار الألفاظ بناء على مدى ملاءمة إيقاعها الصوتي لمضمونها الدلالي، وهنا نجد الأصوات الشديدة في مواقف الترهيب، واللينة في الترويح، كما في بدايات سورة العاديات: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَنْزَلَ بِهِ نَفْعًا﴾ [العاديات: 1←4] حيث الإيقاع أشد مما في سورة النازعات، إذ فيها خشونة ودمدمة وفرقة، كما ذهب إلى ذلك سيد قطب⁽²⁸⁾. وعموما فإن القرآن لم يكتفِ بانتقاء اللفظة الخاصة بالمعنى المحدد المطلوب، بل جمع في إبداع بين طبيعة الصوت والمعنى الخاص، فالكلمة حال توظيفها تستمد دلالتها الإجمالية الكلية من تضافر عناصر عدة، أولها معناها اللغوي المعجمي، فمعناها التركيبي النسقي، ثم إيقاعها الصوتي، وأخيرا ما تفيده من صور وظلال.

وأما الصورة الثانية لإيقاع الكلمة فيكون من خلال النظر إليها وهي وحدة مندرجة في سياقها النظمي القرآني، وهنا نكون - على وجه الخصوص - إزاء ما يسمى الفاصلة القرآنية، باعتبار أن الإيقاع في هذه الحالة يشمل كل عناصر التركيب، لا الفاصلة فقط. وفي هذا الإطار من انتقاء الألفاظ رعاية لإيقاع الآية، أو حتى السورة بتمامها، فإن أبرز ما يتجلى لنا حين القراءة أو السماع هو تساوي كلمات الفاصلة في الوزن وتمائلها في النغمة، تبعا لتساويها في عدد الحروف والحركات والسكنات⁽²⁹⁾. وقد أورد ابن سنان قولاً للعلماء في التفريق بين السجع الذي يُقصد في نفسه ثم يُحمل المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها، ثم عقب على ذلك بأن السجع فيه الحمود والمذموم، وأن الفاصلة القرآنية تمثل في جميعها القسم الحمود منه، وذلك لعلو القرآن في الفصاحة⁽³⁰⁾. وهذا ما يعني أن اللفظة القرآنية تمثل التناسب الأمثل بين جانبها الصوتي الإيقاعي والآخر الدلالي، دون طغيان لهذا على ذاك.

وانظر إن شئت إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: 1←7]، فإنك ترى أن فواصل الآيات قد اختيرت بعناية لا مثيل لها، فغالبا أفعال أمر، من الثلاثي أو الرباعي،

متماثلة الوزن، بحروف فحمة شديدة منتهية بمقطع مقفل بالسكون، في آيات قصار بإيقاع سريع، معبر بصدق عن خطر الأمر تلك، وهي بعد ذلك متناسبة مع بعضها، ومناسبة للإيقاع العام. وانظر أيضا كيف يستعمل مثلا المصدر الأليق بإيقاع كل سياق، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: 3]، وقوله تعالى: ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحریم: 8]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: 71]، حيث استعمل القرآن ثلاثة مصادر للفعل "تاب"، ثم وظف كل واحد بحسب ما يقتضيه السياق الإيقاعي، فالتوب موافق للذنب والطول، ومتابا مناسب لتاب وصالحا، وهكذا (31).

فتأمل كيف توافق إيقاع الفواصل منفردة مع إيقاعها مجتمعة، ثم لم يضر ذلك المعنى المراد في شيء، بل زاده تصويرا وإيجاء وإحساسا بمعانيها.

سادسا: التنوع في الصيغ الاشتقاقية للكلمة:

ومن الخصائص التي تفرّد بها الخطاب القرآني أنه كثيرا ما ينوع في الصيغ الاشتقاقية للكلمة الواحدة، وهذا التنوع في الواقع يؤدي غرضين: الأول هو تضمين كل تركيب ما يناسبه نغما، وإن لم يؤد ذلك إلى تدقيق ظاهر في المعنى، وإنما يغلب عليه ضبط الإيقاع، وهذا ينطبق على ما أشرنا إليه سابقا في تناسب الفواصل القرآنية (متابا)، وحتى في غير الفواصل (توبة، التوب).

أما الغرض الثاني من التنوع الفني في صيغ الاشتقاق فهو غرض دلالي عميق، يهدف إلى تعميق المعنى، وتوجيه الأفهام إلى لطائف دلالية متخفية وراء كل صيغة، وذلك بما شُحنت به من معاني متداخلة، بعضها يحيل عليها المعجم والوضع، وبعضها ليس لك إليه من سبيل إلا أن تُعمل فكرك وذوقك مستعينا بالسياق. مع التنبيه هنا إلى أن الغرض الثاني هذا ليس مانعا من الغرض الأول الإيقاعي، إذ لا تعارض في الجمع بينهما، بل إن هذا التناغم بين الغرضين هو سمة القرآن كله.

ولأن الأمثلة على هذه الصيغ التي نصادفها في الأفعال والمصادر والمشتقات كثيرة؛ فإننا سنقتصر إشارتنا على بعض من كل صنف.

1. في الأفعال: وقد وردت جملة من الصيغ الفعلية المتشابهة في شكل ثنائيات، مثال ذلك "يُشَاقُّ" و "يُشَاقِقُ"، حيث وردت الأولى مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 4]، وأما الثانية ففي موضعين، أحدهما في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13].

ومن كان لهم رأي في المسألة الكرمانى، إذ فسر التباين بين الصيغتين تفسيراً صرفياً، خلاصته تتعلق بالتقاء الساكنين⁽³²⁾، وعلى جودة رأيه كما ذهب القيسي، إلا أن الأخير تبنى تخريج البقاعي في نظم الدرر، والذي مفاده أن «(يُشَاقُّ) موحدة القاف عندما كان متعلقها واحداً يتصف بالوحدانية: الله - تعالى-، وعندما كان ما يليها ساكناً. ووردت مثناة القاف.. عندما كان الموقف يقتضي المجاهرة بالحرف (القاف) متسقة مع المجاهرة بالمعنى»⁽³³⁾، بما يعني اتساق الوظيفة الصوتية الإيقاعية مع الوظيفة الدلالية. ومن ذلك أيضاً - وغيره كثير - ما وقف عليه الزركشي في البرهان حيث اعتبر الصيغة "اصطبر" في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132] فيها تأكيد على قيمة الصلاة والجهد الذي يكون في إقامتها، فهي أبلغ في الأمر بالصبر من "اصْبِرْ"، وذلك بناء على قراءته للصيغة المتضمنة لحرف الطاء الزائد، وهو حرف شديد من أشهر حروف الإطباق، وتعليل هذا - حسب الزركشي دائماً - أن المباني أدلة على المعاني، فإذا زيد في اللفظ وجبت الزيادة في المعنى ضرورة⁽³⁴⁾.

2. في المصادر: من ذلك توظيفه لصيغ "جَهَّاراً"، و"جَهَّراً"، و"جَهْرَةً" على وزن (فَعْلَةٌ) أي مصدر مرة، وإن كان توظيفها بنسب متفاوتة، تبعاً للمقتضى الدلالي والإيقاعي لكل سياق، يقول تعالى في الصيغة الأولى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَّارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: 8، 9]، ويقول في الثانية: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ [النحل: 75]، وأما في الثالثة فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55].

والواقع أن هذه الصيغ، على ما بينها من اشتراك في المعنى العام لالتقاءها في الجذر ذاته، إلا أن بينها فروقا دقيقة، أشار إليها جمهور المفسرين منهم الفخر الرازي، فجهرة بمعنى عياناً، ومراد الآية: أي نراه بالعين الجارحة، وذلك دفعا لتوهم التخيل أو الرؤية المنامية، وأما جهراً فتعني علانية

أو إعلاناً، من الفعل الثلاثي "جَهَرَ"، بينما جهاراً فمعناها معالنة، من الفعل الرباعي "جَاهَرَ" الذي يقبل مصدراً ثانياً هو "مجاهرة" (35).

ومع أن كل هذه المصادر متفقة في الجذر، إلا أن السياق الدلالي، وحتى الإيقاعي، لا يحتمل إلا صيغة واحدة، فقد اختار القرآن (جهاراً) على مجاهرة، لأنها على وزن (إسرا) التي جاءت فاصلة للآية التي تلتها - وإن كان القرآن في عمومها يفضل المصدر (فعلاً) على المصدر (مفاعلة) - وفي الآية الثانية نجد أن جهراً تتوازن مع (سرراً) ومع (حسناً) (36)، ومن هنا نعرف كيف يؤدي اختيار الصيغة وظيفتين في آن واحد، إحداها معنوية والأخرى إيقاعية.

3. **في المشتقات:** وشواهد هذا كثيرة، كما في الأفعال والمصادر، من ذلك التناوب في الاستعمال بين "آثم" الذي هو اسم فاعل، والصفة المشبهة "أثيم"، وهنا أيضاً ليس لعرف بالعربية أن يزعم انتفاء الفرق بينهما، لا سيما وقد ورد هذا التنويع الصيغي في كلام الله تعالى. وإلى هذا يشير الإمام الفخر في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: 283]، يقول: الآثم: الفاجر، وإذا قارنا هذا بقوله في تفسير الآية: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276]، نجد أن "الأثيم" فعيل بمعنى فاعل، أي آثم، ولكنه هنا أفاد مبالغة في وصفه باقتراه الإثم، وذلك باستمراره فيه عناداً منه وجحوداً. وما يؤكد هذا مجيء هذه الصيغة بعد "كفار"، والتي هي بدورها صيغة مبالغة (37). وبذا يتضح الفرق بين "أثيم" المفيدة للمبالغة، و"آثم" الذي بخلاف ذلك، وإن كان السر الأكبر هو في توظيف كل صيغة بحسب مقتضيات السياق المعنوي والتناسب النغمي.

وتأمل أيضاً إن شئت التناوب الحاصل بين صيغة اسم الفاعل "ساحر"، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: 111، 112]. وبين صيغة المبالغة "سحَّار" في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 36، 37]. فقد ذهب بعض العلماء إلى أن مجيء صيغة المبالغة "سحَّار" في الشعراء دون الأعراف لتحقيق مناسبتها لقول فرعون قبل ذلك: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: 34]، ويمكن أن يكون المعنى - كما قال الرازي - أن السحرة جاؤوا بصيغة المبالغة ليطيخوا قلب فرعون ويسكنوا قلقه واضطرابه (38). هذا فضلاً عن

الدقة العالية في توظيف الفعلين "أرسل" و "بعث" بحسب المقام، حيث يصلح هذا دعماً لما قرّره سابقاً في الخاصية الثالثة، المتعلقة بحسن انتقاء اللفظة من جملة "مترادفات".

سابعاً: التصوير من خلال التجسيم والتخييل والجرس والظلال:

وهذه من أبرز الخصائص التي فصل فيها المعاصرون خاصة، وإن كانت للقدماء إشارات إليها تحت عناوين المجاز وتفريعاته، وربما كان أشهر من جلّى هذه الخاصية معزراً إياها بالشواهد القرآنية سيد قطب، وكان من جملتها تحليله الفني لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: 38]، حيث أبدع سيد في إبراز معالم الجمال التصويري في لفظة "اثَّاقَلْتُمْ"، جاعلاً ذلك نموذجاً للتصوير بالمفردة الواحدة، معتبراً إياها خطوة أبعد من التصوير بالعبارة، إذ تسمع الأذن هذه الكلمة «فيتصور الخيال ذلك الجسم المثقل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل. إن في هذه الكلمة "طنناً" [.....] ولو أنك قلت: تثاقلتم، لحف الجرس، ولضاع الأثر المنشود، وتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقل برسمها» (39)، وفرق واضح بين الصيغتين اللتين لم يفرق بينهما إلا الإدغام، وإن كان أصلهما جذراً واحداً، «إذ تدل صيغة اثَّاقَلْتُمْ على المبالغة، في حين تدل "تثاقل" على التكلف» (40).

وفي كلام سيد قطب ما يفهم منه أن التصوير ربما كان في الغالب بالتركيب، غير أن التصوير الفني بمفهومه العام -حسبه- قد يحصل بالمفردة الواحدة في حد ذاتها، ثم إن لهذا التصوير القرآني صور عدة، بينها كثير من التداخل الذي يجعلها أحياناً متآزرة على مستوى اللفظة الواحدة، منها التجسيم، والتخييل، ثم نجد من التخييل ما يسميه قطب التشخيص (41). وكان من أروع الأمثلة التي ضربها للتخييل، قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 18]، وفيها يقول: «هذا هو الصبح يتنفس [.....]، فيخيّل إليك هذه الحياة الوديدة الهادئة التي تنفجر عنها ثناياه، وهو يتنفس، فتتنفس معه الحياة، ويدب النشاط في الأحياء» (42). فتأمل كيف تم تصوير حالة بكاملها من خلال ما أضفته كلمة واحدة هي "تنفس" من تخييل فني بالغ الجمال.

وهناك نوع آخر من تصوير الألفاظ، ولكن هذه المرة إما بالجرس الذي يليق به اللفظ في الأذن كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 1] ←

[7]، ويدخل في هذا الباب تصوير الحركة بالصوت، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُطِئَنَّ﴾ [النساء: 72]، حيث تلمس الدارسون جمالية البُطء في البنية الصوتية للمفردة ذاتها، وذلك في توالي الفتحات والضمات ومواقع الشدات، وقبل ذلك طبيعة الأصوات، وهي الظاهرة الفنية التي عُرِفَت عند المعاصرين باسم "الأونوماتوبيا" [43]، وإما أن يكون التصوير، لا بالجرس، بل بالظل الذي يلقيه في الخيال، وقد يحصل بهما معا [44]، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: 13]، حيث لا يخفى ما للدع [45] من جرس وظلال.

وهذا الذي تناولناه من التصوير بالتجسيم والتخييل والتشخيص والجرس والظلال، هو ما عبّر عنه آخرون بقولهم: إن لفظة القرآن من سماتها أن تأتي مصورة، وناطقية، ومعبرة، وموحية، وكما تأتي هذه الصفات منفردة، فإنها تأتي مجتمعة كما في "أناقلتم" [46]، بل يمكن الجزم بأن ذلك هو الغالب.

ثامنا: اختزان الدلالة في الكلمة الواحدة:

كذلك، مما تميزت به المفردة القرآنية أنها تنطوي على مخزون دلالي كثيف، ولئن كان القرآن كثيرا ما يميل إلى الإيجاز، باعتباره من أبرز مظاهر البلاغة، فإن هناك من الباحثين المعاصرين من يذهب إلى أن «النظرة المتفحصة في الآيات القرآنية تؤكد أن هناك إيجازا أو اختزاناً من نوع آخر، وهو يتعلق بجزئيات مكوّنة للموضوع، ألا وهو اختزان المعاني بمفردات معينة، وذلك يطرد في جميع المواضع القرآنية، ولا يقتصر على موضوع مخاطبة العرب» [47]، في إشارة إلى ما ذهب إليه الجاحظ في الحيوان. فليس المراد بالإيجاز هنا إيجاز الحذف، ولا إيجاز القصر، الواردين في التركيب، بل إيجاز الكلمة في حد ذاتها، بأن تكون حاملة لمعاني أوسع بكثير من معناها الوضعي.

وهذا الثراء الذي تزخر به كثير من ألفاظ القرآن مُتأت في حقيقته من المرونة التي تطبع تلك الألفاظ، بحيث تجعلها محتملة لمعاني، يُحدّد ما كان منها مقصودا بحسب قرينة السياق، بل ربما حُمل اللفظ على معنيين، أو أكثر، دون أن يتعارض ذلك مع اللغة، ولا مع الشرع. ويمكن تلخيص هذا الاختزان الدلالي الذي تتصف به بعض الكلمات في صورتين، هما: توارد المعاني على اللفظ الواحد، والصورة الثانية هي احتمال اللفظ لمعان متعددة [48].

فأما توارد المعاني، وهو ما يسميه القدماء "الوجوه والنظائر" (49)، وهو أن ترد اللفظة في مواضع عدة، وفي كل موضع (نظير) تدل على غير ما دلّت عليه (وجه) في الموضع الآخر، مع جعل السياق حَكَمًا، ومثاله لفظة "هدى" التي وردت مع مشتقاتها في سبعة عشر موضعًا، ثم هي تدل في كل سياق على معنى مغاير لمعنى نظيراتها، والتي منها الدلالة على "البيان" كما في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5]، ومنها أيضا الدلالة على: الدين، والإيمان، والتوحيد، والقرآن، وغيرها من المعاني التي يمكن أن تتداخل، خاصة أن التفريق بينها دقيق ونسبي (50).

وأما احتمال اللفظ للمعاني فهو أن ترد الكلمة في موضع محتملة معنيين، أو أكثر، في آن واحد. وهنا لا سبيل لتحديد المراد منها إلا بإعمال التأويل قصد الترجيح بين المعاني، واعتمادا على القرينة/الدليل. ومثاله كلمة "حساب" التي تضمنها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212]، والتي من معانيها المختزنة المحتملة، - وهو المعنى الأرجح - أن الله تعالى يرزق من يشاء الرزق الكثير الذي لا يدخل تحت حصر (51).

ويقرب كثيرا من هاتين الصورتين صورتان أخريان، الأولى أن يتعدد المعنى الوظيفي للصيغة الواحدة، ثم تتدخل القرينة لتحديد المقصود، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4] فظهير هنا على صيغة (فَعِيل) المحتملة - كما قال أبو عبيدة - للمفرد والجمع (52).

والصورة المقاربة الثانية هي أن تتعدد الصيغ للمعنى الواحد، من ذلك أن الصرفين نصّوا على أن صيغة (فَعَّلَ) تشارك صيغة (أَفْعَلَ) في معنيين من معانيها، وهما: التعدية، والإزالة. فإذا أخذنا مثال التعدية وجدنا من شواهد القرآن قوله سبحانه: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ [الأنعام: 37]، فنُزِّلَ مشاركة لأنزَلَ في المعنى، غير أنه يجب التنبيه إلى أن «توارد تلك الصيغ على معنى واحد لا يعني التوافق التام بين المعاني الوظيفية لتلك الصيغ؛ بل يبقى لكل صيغة من تلك الصيغ دلالتها الوظيفية الخاصة، وإن اشتركت مع غيرها من الصيغ في دلالة عامة» (53). ويتأكد هذا التمايز أكثر إذا كان هذا التنويع الصيغي واردا في النص القرآني، بما يضيفه من ظلال وإيحاءات. هذا؛ فضلا عما أثرى به القرآن بعض المفردات بما أضافه

لها من معاني شرعية، كلفظ الصلاة والحج وما إلى ذلك، مما يؤكد أن «المفردة القرآنية تجاوزت حدودها المعجمية، وقد تجاوزت أحيانا إجماعها المعهودة»⁽⁵⁴⁾.

فهذه صورة مجملة عن كيفية اختزان الكلمة للمعاني بما يجعلها ثرية، قادرة على جمع ما تفرق في لفظة واحدة.

تاسعا: التلويح التهذيبي فيما لا يُستحب التصريح به:

لمتدبر القرآن أن يلاحظ أن هناك بعض المعاني والمضامين لم يُعبّر عنها تصريحاً بواسطة ألفاظها الدالة عليها في الوضع الأول، وإنما يجد عوض ذلك كلمات أخرى، وربما من حقل دلالي مغاير، غير أنه بتدقيق النظر سيقف على خيوط دقيقة رابطة بين اللفظ المستعمل والمعنى الذي دلّ عليه في ذلك السياق، حيث نلاحظ أن هناك انتقالاً فنياً باللفظ من معناه الوضعي الأصلي إلى معنى فرعي مجازي غُيِّب لفظه الدال عليه بالحقيقة.

إن عدم التصريح باللفظ الدال على معناه بالوضع هو أسلوب لغوي فني يهدف إلى مغزى تهذيبي عميق، وليس مجرد استبدال واختيار أسلوبٍ لأغراض فنية بحتة. وهذا الأسلوب التهذيبي هو ما يعرف عند الدارسين تحت عناوين اصطلاحية متباينة لفظاً متقاربة معنى، وهي "الكناية"، و"التعريض"، و"الإشارة"، و"الرمز"، و"التلويح". وقد تناول علماءنا الأولون هذا الأسلوب تحت عنوان الكناية خاصة، ضاربين له أمثلة واضحة من كتاب الله تعالى، وإن كان يتنا «أن المحدثين تعمقوا في جمالية الاختزان الذي يدعو إلى الترفع والتأدب في كلمات لا علاقة لها بالنساء، إذ كان نصيب التهذيب في شؤون المرأة كبيراً عند القدماء»⁽⁵⁵⁾. وهي جميعاً أساليب تشترك في كونها تهدف إلى التعبير عن معاني خاصة، بألفاظ غير ألفاظها، تنزهها عن الفحش من القول، أو تجريح المخاطب بعدم رعاية نفسيته وشعوره.

أما المثال لما لا يصح التصريح بلفظه الموضوع له، فإن «من عادة القرآن العظيم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث والدخول والنكاح، ونحوهن»⁽⁵⁶⁾، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ [البقرة: 187]. وليس لمعتز هنا أن يدّعي أن لفظ "الفرج" الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: 91] خارج عما ثبت لألفاظه من الشرف، ذلك أن هذه الكلمة هي مشترك لفظي بين عدّة مسميات، من بينها موضع العرض، والذي استعملت فيه

كنائيا بشيوع حتى قربت من الحقيقة العرفية ليس غير، بل ذهب الزركشي إلى تخطيء من توهم هنا الفرج الحقيقي، إنما هو عنده فرج القميص، وهو من لطيف الكنايات وأحسنها⁽⁵⁷⁾.

وأما مثال التلويح والتهذيب مراعاة لنفسية المخاطبين والتأثير فيها، فكما في قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 229]، فالقرآن هنا سمى الطلاق تسريحا، ليس ترغيبا فيه، وإنما تلويعا بما يجب على كل مسلم من حسن المعاملة وجمال كيفية الطلاق إذا كان ولا بد. ويعضد هذا الفهم لفظ الإمساك الدال على التعلق بالشيء، إذ فيه دعوة ضمنية للإبقاء على العلاقة الزوجية، «فهذان اللفظان اللذان يترددان كثيرا في تشريع الطلاق حظ النفس منهما أكثر من حظ العقل، وهما مختاران اختيارا دقيقا للدلالة على المراد منهما»⁽⁵⁸⁾.

وهكذا يتجلى وجه آخر من أوجه الإعجاز، ذلك أن «طابع التهذيب يدل على تمكن من الفروق اللغوية، بحيث تختار كلمة مناسبة، تومئ بظلالها إلى المعنى، وهذا يدل على النهوض بالنفس البشرية، وإبعادها عن الابتدال، لأن الحياة السوية مطلب القرآن الكريم»⁽⁵⁹⁾.

عاشرا: تحقيق التكامل الأمثل بين جمالية الشكل وثراء المضمون:

أما هذه فهي خاصية الخصائص، أو هي الخاصية الجامعة لكل ما وقفنا عليه من سمات إعجازية، والتي منها ما كان متعلقا بالشكل، ومنها ما كان متعلقا بالمضمون. أما هذه الخاصية فمفادها باختصار أن الكلمة القرآنية تجسد، حيثما وردت، صورة التكامل في أجلى صوره بين ثرائها الدلالي وشكلها الجمالي.

وهذا التكامل يتحقق في توازن عجيب، بحيث لا يطغى جانب على آخر، بل كل يضيفي على الآخر بُعدا ثانيا لتكتمل صورة اللفظ، وهي تؤدي وظيفتها المزدوجة المعنوية والشكلية في انسجام واعتدال. إن «في القرآن مناسبة تامة بين الشكل والمضمون، فلا أقل من العودة إلى القرآن الذي قدم الحالة النفسية، وتصوير أجواء المواقف في المدود والغنات والتكثير والسكنات والحركات، فالمواقف مختلفة، والتشكيل الصوتي تبعاً لها مختلف، وكأن الحرف يمثل ويرسم، والحركات تضيف الأطر اللازمة للصورة»⁽⁶⁰⁾.

وما يدخل ضمن هذا الباب من التكامل بين الشكل والمضمون، تكامل آخر أوسع، يحدث بين جملة ما أوردناه من خصائص، حيث تجتمع عدة سمات في الكلمة الواحدة، وهذا ما لا نجد له مثيلا في كلام البشر، إذ يمكن أن ترد على انفراد، أما أن تحملها كلمة واحدة فليس

ذلك في طاقة أحد. وتكفي العودة إلى ما مثلنا به للخصائص السالفة لنقف على صحة ما قررناه من كون الكلمة القرآنية نموذج واضح لتأزر الشكل والمضمون، واستيعابها البديع للخصائص على تعددها وتنوعها.

الخاتمة:

هذا - إذن - خلاصة ما وقفنا عليه من السمات الإعجازية للكلمة، وهي متموضعة في سياقها القرآني، أجملناها في نقاط منفصلة تيسيرا للدرس والتمثيل، وإلا فإنها في واقعها النصي القرآني متداخلة متشابكة تعسر على الفصل.

فالكلمة القرآنية أفصح ما يمكن، خفة، ووضوحا، وانضباطا بالقياس الصرفي، إلا ما جاء ثقيلا أو غريبا موافقة لثقل الموقف وغرابته، ثم إن اختيارها من الدقة ما يجعلها أنسب من غيرها في التعبير عن المراد شكلا وإيقاعا، وذلك لما اختزنه من دلالات مكثفة، انطوت عليها بنيتها من تصوير وحرس وتنوع في الصيغ، فضلا عن مناسبتها لسياقها الإيقاعي، وتلويحاتها التهذيبيية، ثم هي جامعة بين جمالية الشكل وعمق المضمون.

هذا؛ وإن الكلمة في السياق القرآني بعد ذلك؛ قادرة على استيعاب كثير من الخصائص، مما وقفنا، أو لم نقف عليه، في آن، وكل ذلك بتوازن معجز لا يسمح بطغيان هذا على ذاك، بل كل فيها بمقدار موزون.

* الهوامش:

1. ينظر: الرافي، مصطفى صادق. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه وضبطه: محمد سعيد العريان، قدم له: محمد علي سلامة، الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1435هـ، 2015م، ص 109، وما بعدها.
2. ينظر: المرجع نفسه، ص 157، وما بعدها.
3. ينظر: الحفاجي الحلبي، أبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان. سر الفصاحة، تح: داود غطاشة الشوابكة، دار الفكر، عمان، الأردن، ط 1، 1427هـ، 2006م، ص 58، وما بعدها.
4. ياسوف، أحمد. جماليات المفردة القرآنية، إشراف وتقلم: نور الدين عتر، دار المكتبي، دمشق، سورية، ط 3، 1430هـ، 2009م، ص 204.
5. ينظر: المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1413هـ، 1992م، ج 1، ص 246، 247.
6. الرافي. إعجاز القرآن، ص 171.

7. المطعني. خصائص التعبير القرآني، ج 1، ص 251. وكذلك: الراجعي. إعجاز القرآن، ص 171.
8. قطب، سيد. التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 16، 1423هـ، 2002م، ص 92.
9. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
10. ينظر: الخفاجي. سر الفصاحة، ص 216.
11. ينظر: ابن أبي الأصبغ المصري. تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقدم وتحقيق: حفي محمد شرف، ك 2، د ط، د ت، ص 195، 196.
12. الحَرَضُ ما لا يُعْتَدُّ به ولا خير فيه، ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك حَرَضَ، قال عز وجل (حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا). ينظر: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص 113.
13. الراجعي. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 171.
14. الترادف مسألة خلافية بين العلماء، حيث أثبتتها بعضهم وهم القلة، وأنكرها آخرون، وتوسط بينهما فريق ثالث، إذ أثبتتها في اللغة دون القرآن ومنهم الرماني والسيوطي، ومن المعاصرين عائشة عبد الرحمن. وكان الزركشي من أشهر من تبني موقف أبي هلال العسكري قبله في القول بالإنكار، ساردا لذلك الكثير من الشواهد القرآنية. ينظر: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث، القاهرة، د ط، د ت، ج 4، ص 78، وما بعدها. وكذلك: ياسوف. جماليات المفردة القرآنية، ص 60، وما بعدها.
15. الراجعي. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 199.
16. ياسوف. جماليات المفردة القرآنية، ص 67.
17. في بيان الفروق بين ما يُظن داخلا في باب الترادف، ينظر: الزركشي. البرهان، ج 4، ص 78. فقد أورد لذلك أمثلة شافية.
18. المرجع نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.
19. ينظر: ابن أبي الأصبغ. تحرير التحرير، ص 194، 195.
20. المطعني. خصائص التعبير القرآني، ج 1، ص 252. والفكرة أيضا عند: ياسوف. جماليات المفردة القرآنية، ص 58، 59.
21. أبو زيد، أحمد. التناسب البياني في القرآن - دراسة في النظم المعنوي والصوتي، كلية الآداب، الرباط، د ط، 1992م، ص 195.

22. ينظر: الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر. أسرار التكرار المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار بوسلامة، تونس، ط 2، د ت، ص 58.
23. المطعني. خصائص التعبير القرآني، ج 2، ص 107، 108. وينظر أيضا: أبو زيد. التناسب البياني في القرآن، ص 195.
24. ينظر: السلامي، عمر. الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، د ط، 1980م، ص 164، 173.
25. الرافعي. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 172.
26. أبو زيد. التناسب البياني في القرآن، ص 242.
27. ينظر: ياسوف. جماليات المفردة القرآنية، ص 205.
28. ينظر: قطب. التصوير الفني في القرآن، ص 126، 127.
29. ينظر: المطعني. خصائص التعبير القرآني، ج 1، ص 304، 305.
30. ينظر: الخفاجي. سر الفصاحة، ص 163، وما بعدها.
31. ينظر: أبو زيد. التناسب البياني في القرآن، ص 357.
32. ينظر: الكرمانى. أسرار التكرار، ص 97.
33. القيسي، عودة الله منيع. سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، دار البشير، عمان، الأردن، ط 1، 1416هـ، 1996م، ص 91.
34. ينظر: الزركشي. البرهان، ج 3، ص 34.
35. ينظر: الرازي، محمد فخر الدين. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1401هـ، 1981م، ج 3، ص 90، وينظر أيضا: القيسي. سر الإعجاز، ص 216.
36. ينظر: القيسي. سر الإعجاز، ص 216، 217، 218.
37. ينظر: الرازي. التفسير الكبير، ج 07، ص 103، 104، 133. وكذلك: القيسي. سر الإعجاز، ص 132، وما بعدها.
38. ينظر: الرازي. التفسير الكبير، ج 14، ص 208، ج 24، ص 132. و الكرمانى. أسرار التكرار، ص 127 وهنداوي، عبد الحميد أحمد يوسف. الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم - دراسة نظرية تطبيقية التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ط، 1429هـ، 2008م، ص 103، 104، 105.
39. قطب. التصوير الفني، ص 91، 92.
40. ياسوف. جماليات المفردة القرآنية، ص 159.

41. ينظر: قطب. التصوير الفني ، ص 71 وما بعدها.
42. المرجع نفسه، ص 73.
43. ينظر: ياسوف. جماليات المفردة القرآنية، ص 157، وما بعدها.
44. ينظر: قطب. التصوير الفني ، ص 94، 95. وكذلك: المطعني. خصائص التعبير القرآني، ج 1، ص 262، وما بعدها.
45. الدُّعُ الدفع الشديد، والأصل أن يقال للعائر دُعُ دَعُ كما يقال له لَعَا، قال تعالى (فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ). ينظر: الراغب الأصفهاني. المفردات في غريب القرآن، ص 169.
46. ينظر: السلامي. الإعجاز الفني في القرآن، ص 88، وما بعدها.
47. ياسوف. جماليات المفردة القرآنية، ص 269.
48. ينظر: المطعني. خصائص التعبير القرآني، ج 1، ص 369، وما بعدها.
49. ينظر: الزركشي. البرهان، ج 1، ص 102، وما بعدها.
50. ينظر: المطعني. خصائص التعبير القرآني، ج 1، ص 369، 370، 371.
51. ينظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 374.
52. ينظر: هندراوي. الإعجاز الصربي في القرآن الكريم، ص 55.
53. المرجع نفسه، ص 60، 61.
54. ياسوف. جماليات المفردة القرآنية، ص 34.
55. المرجع نفسه، ص 280.
56. الزركشي. البرهان، ج 2، ص 303.
57. ينظر: الزركشي. البرهان، ج 2، ص 305. والمطعني. خصائص التعبير القرآني، ج 1، ص 259.
58. المطعني. خصائص التعبير القرآني ، ج 1، ص 426.
59. ياسوف. جماليات المفردة القرآنية، ص 255.
60. المرجع نفسه، ص 33.